

مخاطبات حواء وشفرة الحب والحياة لبشري البستاني

تواتر موسيقي سينمائي يهيمن علي الشعر

■ رشا فاضل

مربكة هي الكتابة عن شعر بشري البستاني لأن حدود نصها الشعري تبدأ منها وتنتهي اليها ولا يسعنا ونحن نطالع قصائدها الا ان نشهد هذا التشابك الفاتن بين الكاتب ونصّه.. حتي تتحول القصيدة الي هوية اخري اكثر صدقا مما تقوله الاوراق الثبوتية. تتعدي علاقة البستاني بنصها المحدودية فتتجاوزها الي الشمولية منتمية بذلك الي حواء الأصل مانحة اياها صوتها ولغة جديدة ماطرة تسير تلك الاغوار السحيقة مشرعة بوجه صمتها المعتق نوافذ البوح والرؤي عبر خطابات حوائية لم تخضع لتكرير اللغة والحواس انصياعا لعقدة الزمان والمكان، حتي جاءت تشفيرتها الشعرية شكلا لغويا مهرا نابعا من أصل اللغة لا يتخذ من منه ملاذا للإيهام الذي غالبا ما تحتاجه المرأة/حواء كقناع لغوي للالتفاف حول المعني، وفي ذات الوقت تحافظ علي قدسية نصها الشعري فتنأي به عن ذلك المواء الشباطي الذي تتصف بها خطابات الجسد وهو يحاول ارتداء شكل القصيدة.

منذ القصيدة الأولى في ديوانها (مخاطبات حواء) لا تنفك الشاعرة عن رسم خطواتها بموسيقي شعرية تعلو بتعدد المشاهد التي تضع القاريء في مقدمة القصيدة وقلبيها، فثيمة النص تميزت بكثافة اللغة التي نزلت بفطرتها كخامة وكجسد ولد للتو ونزل بعرائه علي سطح الورق لذا جاء النص متدفقا بصدقه مبتعدا عن بهرجة اللغة متفلتا من القوالب الضيقة التي باتت تحشر حتي قصيدة النثر ضمن اسوار الإيهام والغموض التي غالبا ما يضيع فيها القاريء

محاولة فك تلك النصوص الطلاسمية التي يضيع فيها المعنى وتتشتت الصورة الشعرية وربما من هنا جاءت اشكالية قصيدة النثر التي خرجت من اطرافها الجمالي عند بعض الشعراء لتتحول الى احجية تسلب القارئ بأنواعه متعة القراءة وتحرمه من استشفاف روح القصيدة ورؤية تجلياتها.

ان من جملة ما يميز لغة البستاني في هذا الديوان هو ذلك الايقاع الداخلي للقصيدة فنجدها تضاهي القصيدة الموزونة التي تخاطب الاذن قبل كل شيء وهذا لا ينتقص منها بالتأكيد لكنه يشير الى سبب بقائها عالقة في الذاكرة عكس قصيدة النثر التي تكفلت الشاعرة هنا بتعريفها تعريفا شعريا خالصا بنصوص هذا الديوان فيتمظهر لنا ايقاع القصيدة الداخلي المبني بهندسة درامية سينمائية تضع القارئ امام شاشة هذا العرض البانورامي الشعري وفي بدايته تماما والبداية هنا تتعدى الاستهلال أو الاضاءة فهي تمثل بداية كونية تصور لنا بداية الخليقة وأصل التكوين تسردها حواء بتجلياتها لتضعنا في مواجهة ماهرة امام ذلك التناغم الروحي والجسدي مع آدم كفعل إبداعي موصول بجمال الطبيعة وكسر من اسرارها المقدسة كونشرتو شعري

يتمحور الحدث الشعري حول بؤرة الخلق وبداية التكوين ولا بد من التوقف عند عتبة العنوان (مخاطبات حواء) التي تشكل متنا إضافيا يتركز الديوان حولها بما يحمله من سيميائية تسهم بتشكيل البنية التصويرية للمتن بالاضافة الي تداخلها مع الحدث الشعري لتكون جزءا فاعلا ومؤثرا فيه.

ان ما يميز هذا الديوان هو ذلك التواتر الشعري الموسيقي السينمائي الذي يهيمن علي الحدث الشعري ويجعله موصولا بذهنية القارئ علي اختلاف مستوياته فمن التواصل الموسيقي الي التواتر الشعري المتداخل ضمن الهندسة السردية التشكيلية للنص مؤسسا بذلك خطابه الخاص المتصل بما سبقه وتلاه من النصوص.

تستري عملية قراءة هذا الديوان استنهاض جميع أجهزة التلقي الأمر الذي يحدث تلقائيا فهو لا يختص بمخاطبة الخيال ومداعبته فقط بل تجاوز محدودية الخطاب والمخاطب ليستري حضور الحواس: البصر/السمع معا في محاولة لفك الشيفرات المكتنزة داخل النص والتي يأخذ القارئ برؤوس اقلماها ويستدل الدرب الي مجاهيلها كلما اوغل في القراءة وامعن في الإنصات لذلك الإيقاع

الداخلي الذي يعلو ويخفت حسب اجواء القصيدة ومقتضياتها الشعرية. ان المتواليّة الشعريّة لدي البستاني تستقي استمراريّتها من الثيمة التي شكّلت ارضية واسعة للحدث الشعري الذي يتحرك ضمن اجوائها برشاقة وحرية دون ان يفقد خاصية التواصل او يحدث خللا في البنية التكوينية للقصائد، ولا بد من الاشارة هنا الي قدرة الشاعرة في الموازنة بين عناصر النص مهما اختلفت وتنوعت لغة وفكرة ونسيجا.

ولا يمكن ايعاز هذا الاحكام الشعري اذا جاز التعبير للشاعرة البستاني للموهبة فقط فللخلفية الثقافية والأكاديمية والمعرفية بأسرار اللغة كونها اشتغالها الاساسي كناقدة كان سببا في هذا الإحكام لكنه ليس السبب الوحيد اذ لايمكن مصادرة فطرة الموهبة فلا بد من الاشارة الي ان الشاعرة حاولت أن تقف علي مسافة معقولة بينها وبين الأكاديمي فيها لتتجرد - كما نفترض - من ادواتها النقدية وتطلق العنان لأجنحة القصيدة لتحط براحتها علي الورق، غير ان القراءة مابعد الاحتفائية بالديوان تقول عكس ذلك فهندسة القصائد وحتى تسلسلها يشكل قراءة قائمة بحد ذاتها ولنعد قليلا الي العنوان من جديد لما له من تأثير في تشكيل المتن وتكوينه لنجد ان (مخاطبات حواء) تختزل تجربة حواء منذ الخطيئة الاولى التي الصقت بها عنوة لتظل تكفّر عن هذه الخطيئة وتصبح ضحيتها حين يمنحها الرجل/آدم تلك الخطيئة ويصبح هو ضحيتها الاخرى، ليتعزز بذلك مفهوم الشمولية الذي انطلقت منه الشاعرة عائدة بنا الي النواة الاولى ما قبل زمن الخطايا حين كان آدم/ الرجل يجيد الحياة كما البوح ولعل المقطع التالي للقصيدة التي حملت عنوان الديوان يظهر صوته بوضوح وهو يطلقه عبر حنجرة حواء/المرأة النصف الآخر قبل ان تدب بينهما تفاحة الخطيئة والقطيعة والصمت:

- قلت..
- مطفأة عيون التفاح
- فلاتهزي الشجر
- ومحترقة جذور الأغنية،
- فلتوقظي الجرح،

- قبل أن تنام السكين...
- وقلت..
- لاتنامي
- فقد شبّت النيران في السرر
- وهبّ الملائكة مذعورين.
-

الجسد بوصفه ملاذا يقول باشلار (المكان الرحيم هو أكثر الأماكن أمانا). يتعدي الجسد هنا ايروسيته وهو يؤنس البلاد ويضفي عليها تلك المسحة الانسانية متخذاً فيما بعد موقعها ليكون الوطن البديل في بلد اكلته الحروب، وليس ثمة أنسب وأكثر ملائمة من المرآة لتتخذ دور الوطن والملاذ والحظن الاخير كنتيجة حتمية لكيان احتظن نواة الحياة في رحمه واطلقها للوجود ليكون مبتداها ومنتهاها.

قصيدة بعد أخرى تتضح ملامح الارتباط الجوهرى للنصوص وتناغم الإيقاع الداخلي لها وهذا لا يتكرر كثيراً الا ضمن حدود القصيدة الواحدة التي تتوحد فيها الصور والإيقاع كنتيجة حتمية للوحدة الافتراضية للنص، ومما يحسب لبشري البستاني في هذا الديوان هو حفاظها علي هذا الترابط دون ان تقع في رتابة التكرار وانحسار المعنى والصور الشعرية وقد جاء الإيقاع الداخلي للقصائد مشفوعاً بإيقاعها الخارجي وموائماً له دلالياً وبنوياً وليس كأداة جمالية متجردة المعنى بل في صميم العمل الشعري، كما أن القافية التي ظهرت في بعض القصائد لا تقتصر مهمتها علي الحفاظ علي النسق العام للقصائد كضابط موسيقي ينتقص من قوة أداء القصيدة وفعاليتها بل جاء متفاعلاً معها ومتضامناً مع المعنى ومكملاً له

تعبر هذه القراءة السريعة في ديوان (مخاطبات حواء) عن احتفاء شخصي بالمعنى والمبني المعماري للقصائد الذي جاء علي درجة كبيرة من التميز، حاملاً معه صوتاً مغايراً للبحر الاثني كفعل حياة انتجت الطبيعة واختزلته بين دفتي هذا الديوان الذي ما يزال يفتح ذراعيه لقراءات أبعد مدي وأكثر سبراً لأسراره التي

لايمنحها بسهولة، واننا اذ ادلينا بهذه القراءة الاحتفائية لاندعي الامام بكل مقومات النقد الموضوعي فهو ليس من اختصاصنا وما قراءتنا المتواضعة هذه الا انصياعا لتلك الغواية التي جرتنا اليها القصائد وهي تحوك حولنا خيوط سحرها التي حاولنا أن نمسك ببعضها لنمنح القاريء والنقاد معا بعض المفاتيح التي يمكن من خلالها الدخول لأجواء حواء وهي تبذل صوتها وحبها بوحا يتجاوز المحدودية وهو يتبني حنجرة وطن صادروا صوته وكمّموا أحلامه ليُدلي بها علي بياض الورق.